المبحث الثاني: الأساليب الإقناعية و الخصائص الفنية لفن الخطابة.

إذا كانت وظيفة الخطابة هي الإقناع والتأثير، فمعنى ذلك أن نص الخطبة يعتبر جزءا أساسيا في عملية الإقناع والاقتناع. إذ أنه الواسطة بين الخطيب والسامع.

ولكي يؤدي النص الخطابي هذا الدور لابد أن تتوفر فيه شروط أدبية وحجاجية بارزة تهدف إلى استمالة السامع وإقناعه بالموضوع الذي يتحدث عنه الخطيب.[2]

فما هي إذن هذه الشروط التي يجب أن يتوفر عليها النص الخطابي؟

إذا ما تأملنا نصوص الخطابة الإسلامية؛ نجد أنها تتوفر على شروط أدبية وحجاجية. فهي تنقسم إلى قسمين أساسيين: قسم يتعلق بالبراهين والأدلة الجاهزة التي يوظفها الخطيب في خطبته، وقسم يتعلق بالجوانب الفنية التي يمكن أن يتضمنها الأسلوب. وسنتناول في هذا المطلب ما يتعلق بالبراهين والأدلة وفي المطلب الموالي ما يتعلق بالجانب الفني.[3]

المطلب الأول: الأساليب الإقناعية والبراهين الحجاجية

يعتبر إدراج البراهين والأدلة المتنوعة في نص الخطبة من المسلمات التي يتطلبها منطق الإقناع، بما أن الخطبة تهدف إلى الإقناع والتأثير. ومن أهم هذه الأدلة ما يلي:

- أولا: الاستشهاد بالقرآن الكريم

إذ يعد القرآن الكريم دعامة أساسية وحجة دامغة لجميع المسلمين ويمكن أن نستشف هذه الأهمية من خلال قول الهيثم بن عدي حيث قال: "لم تكن الخطباء تخطب قعودا إلا في خطبة النكاح. وكانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل، وفي الكلام يوم الجمع آي

---

[2]- الخطابة العربية الإسلامية، د الرحموني ص99.
[3]- نفسه، - بتصرف-.

من القرآن، فإن ذلك ما يورث الكلام البهاء والوقار، والرقة، وسلس الموقع".[4] وقال عِمران بن حطان: "خطبت عند زياد خطبة ظننت أني لم أقصر فيها عن غاية، ولم أدع لطاعن علة، فمررت ببعض المجالس فسمعت شيخا يقول: هذا الفتى أخطب العرب لو كان في خطبته شيء من القرآن".[5]

وعلى أن خطباء السلف الطيب، وأهل البيان من التابعين بإحسان، ما زالوا يسمون الخطبة التي لم تبتدأ بالتحميد، وتستفتح بالتمجيد: (البتراء). ويسمون التي توشح بالقرآن، وتزين بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم: (الشوهاء).[6]

ومن خلال القولين يتبين أن الاستشهاد بالقرآن الكريم أو الاقتباس منه يرفع من شأن الخطيب عبد الجمهور.

وإضافة إلى كونه حجة دامغة فالقرآن الكريم يتميز بأسلوب إقناعي لا نظير له. ويؤكد هذا ما روي عن الوليد بن مغيرة – الذي كان من ألد خصوم الرسول صلى الله عليه وسلم– حين سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلو بعض آي الذكر الحكيم، فتوجه إلى نفر من قريش يقول لهم: "والله لقد سمعت من محمد كلاما ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمُغدق" وواضح أنه تبين من كونه ليس شعرا موزونا، مما كان يدور على ألسنة شعرائهم، ولا سجعا مقفى مما كان يدور على ألسنة كهانهم، إنما هو نمط وحده فصلت آياته بفواصل تطمئن عندها النفوس، وتجد فيها وفي كل ما يتصل بها من ألفاظ روحا وعذوبة. وإنه نمط باهر، بل هو نمط معجز ببيانه وبلاغته.[7]

ولعل أوضح مثال بين حجية القرآن وأثره في السامع، ما حدث حينما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ ظن عمر رضي الله عنه أنه لم يمت، وخطب في الناس حول هذا

---

[4]- البيان والتبيين، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت 255هـ) تحقيق موفّق شهاب الدين، ص 86 المجلد الأول. الطبعة الثالثة دار الكتب العلمية.

[5]- البيان والتبيين، الجاحظ ص 3-4 ج2.

[6]- نفسه، ص3 ج2.

[7]- العصر الإسلامي، شوقي ضيف ص 30 الطبعة السابعة دار المعارف بمصر.

لمعنى، بينما قام أبو بكر رضي الله عنه ليؤكد للناس موته مستشهدا بقوله تعالى: {وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم}، فما كان من عمر إلا أن قال: والله ما سمعت أبا بكر تلاها حتى وقعت على الأرض ما تحملني رجلاي، وعرفت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات...".[8]

وإذا ما تتبعنا نصوص الخطابة الإسلامية نجد جلها -بإختلاف مجالاتها وموضوعاتها- قد وشحت بآي من القرآن الكريم استشهادا أو اقتباسا، بل إننا نجد بعض الخطباء من جعل خطبه كلها عبارة عن آيات قرآنية، تتخللها إشارات لإيضاح المعنى المقصود. كما فعل مصعب بن الزبير حيث لم يزد على أن قرأ فواتح سورة القصص فقال: بسم الله الرحمن الرحيم: {طسم. تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ. نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ. إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ}. وأشار بيده نحو الشام. {وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ}. وأشار نحو الحجاز. {وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ}. وأشار بيده نحو العراق.[9]

ولم يكتف الخطباء البلغاء بالاستشهاد بالقرآن الكريم بل أدرجوا كذلك في خطبهم الحديث النبوي الشريف.

- الإستشهاد بالحديث النبوي الشريف

وإذا كنا قد عرضنا في الموضع السابق أثر القرآن في الخطابة فإن للحديث هو الآخر أثرا فيها، باعتباره جاء موضحا ومبينا للقرآن الكريم، وإن كان لم يرق إلى درجة الاستشهاد بالقرآن أو الاقتباس منه. ومرد ذلك أن الحديث لم يكن مدونا في العصور الأولى للإسلام، إضافة إلى ذلك خشية الخطباء من الوقوع في المحظور باستشهادهم

[8]- الخطابة العربية الإسلامية، د الرحوني ص 101.
[9]- نفسه، -بتصرف- ص 102/ 103. عن البيان والتبيين للجاحظ ص 197 ج2 .

بأحاديث موضوعة.[10] وهذا لم يمنع الخطباء من الاستشهاد بالأحاديث المتواترة والمشهورة، ومن ينظر في هذه الأحاديث وما نص عليه العلماء بأنه روي بلفظه يعرف أنه عليه الصلاة والسلام أوتي جوامع الكلم لقوله صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه الشيخان: "بعثت بجوامع الكلم"[11]، وفي هذا يقول الجاحظ عنه صلى الله عليه وسلم <<فلم ينطق إلا عن ميراث حكمه، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة، وشيد بالتأييد ويسر بالتوفيق. وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة، وغشاه بالقبول..[12]>> .

ومثال ذلك خطبة عبد الرحمن بن الأشعث حين وظف حديثا نبويا مشهورا حيث قال لأصحابه و هو على المنبر: << قد علما إن كنا نعلم، وفهمنا إن كنا نفهم، *أن المؤمن لا يلسع من جحر مرتين*، وقد والله لُسِعت بكم من جحر ثلاثَ مرات، وأنا أستغفر الله من كل ما خالف الإيمان، وأعتصم به من كل ما قارب الكفر[13]>>.

بل أصبحت بعض أقواله صلى الله عليه وسلم تدور بين الناس دوران الأمثال كما ذكر ذلك الجاحظ في كتابه البيان من نحو قوله صلى الله عليه وسلم: " يا خيل الله اركبي" وقوله: "مات حتف أنفه" وقوله "لا تنتطح فيه عنزان" وقوله "الآن حمي الوطيس"[14].
ومن أمثاله أيضا: إن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى/ إياكم وخضراء الدمن...".

- الاستشهاد بالشعر:

قد جرى خطباء العرب منذ العصر الجاهلي على التمثل بالشعر في خطبهم،[15] ومن ثم فلا عجب أن يكون له حضور في الخطابة على سبيل الحجة والدليل باعتباره حكمة وخلاصة تجربة، فهي ظاهرة مميزة في الخطابة العربية. فإن العديد من نصوص

---

[10]- الخطابة العربية الإسلامية، د الرحوني ص 103، بتصرف.
[11]- رواه الشيخان.
[12]- البيان و التبيين، للجاحظ ص 11 ج2.
[13]- نفسه، ص 10 ج2.
[14]- نفسه ص 9 ج 2.
[15]- في بلاغة الخطاب الإقناعي د محمد العمري ص 91.

الخطابة الإسلامية تتخللها أشعار على سبيل الاستشهاد أو التمثل أو الإنشاد،[16] وأكثر ما نجد الاستشهاد بالشعر في خطب بني أمية وولاتهم.

ففي خطب الحجاج استشهادات شعرية كثيرة أحيانا كما في خطبته حين ولي الكوفة، وهي تساهم في بناء الخطبة فتدعم الصورة بما تشيعه من إغراب وإحالة على عالم خاص كما تدعم الصوت والإيقاع[17].

وكان صالح المُرِّي القاصُّ العابد البليغ كثيرا ما يُنشد في قصصه وفي مواعظه هذا البيت:[18]

فبات يُروِّي أصولَ الفسيل فعاش الفسيلُ ومات الرجلُ

وأنشد الحسن في مجلسه، في قصصه وفي مواعظه:

ليسَ من ماتَ فاستراحَ بميتٍ إنّما الميتُ ميِّتُ ميتُ الأحياء

- التمثل بالنثر والشعر:

يقوم المثل في الخطابة مقام الاستقراء في المنطق، أو المثل هو استقراء بلاغي. والمثل حجة تقوم على المشابهة بين حالتين في مقدمتها، ويراد استنتاج نهاية إحديهما بالنظر إلى نهاية مماثلتها.[19]

والمثل في تقدير الزركشي: "يستعمل لإخراج ما لا يُعلم ببديهة العقل إلى ما يعلم بالبديهة، وما لم تجر به العادة، وما لا قوة له من الصفة إلى ما له قوة". وعند الراغب: "قولٌ في شيء يشبه قولاً في شيء آخر بينهما مشابهة ليُبيِّنَ أحدهما الآخر ويُصوِره". ويرى الرازي أن "المثلَ يؤثر في النفس مثل تأثير الدليلِ".[20]

---

[16]- الخطابة العربية الإسلامية د عبد الرحيم الرحموني ص 104. -بتصرف- .
[17]- في بلاغة الخطاب الإقناعي د العمري ص 91.
[18]- البيان والتبيين، الجاحظ ج1 ص 87
[19]- في بلاغة الخطاب الإقناعي، د العمري ص 82.
[20]- نفسه ص 84.

وفي القرآن قوله تعالى: {وَتِلكَ الأَمثَالُ نَضرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُم يَتَفَكَّرُونَ}[21]. { يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ}[22].

والواقع أن المثل يُعتبر دعامة كبرى من دعائم الخطابة لما يحققه من إقناع وتأثير.[23] كما يقول الجرجاني في كتابه أسرار البلاغة فصل في مواقع التمثيل وتأثيره: " واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه، أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني، أو برزت هي باختصار في معرِضه، ونُقلت عن صورها الأصلية إلى صورته، ... ضاعف قُواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكَلفا...فإن كان مدحاً، كان أبهى وأفخم،... وأهز للعطف، وأسرع للألف، وأجرب للفرح... وإن كان ذماً، كان مسه أوجع، وميسمه ألذع... وإن كان حجابا كان برهانه أنور، وسلطانه أقهر... وإن كان وعظاً، كان أشفى للصدر، وأدعى للفكر، وأبلغ في التنبيه والزجر..."[24]

وقد قسم العلماء المثل إلى أنواع، منها: المثل التاريخي، والمثل التشبيهي، والمثل الخرافي.

فاستعمل المثل التاريخي في القرآن استعمالاً واسعا كما استعمل المثل التشبيهي، واستعمله القصاص فيما روَوا من أخبار الأمم، في تفسير آي الذكر وتحميس الجنود، وغير ذلك من الأغراض التي كانت وراء قصصهم، ثم استعمل المثل على لسان الحيوان (المثل الخرافي)، فيما بعد، عند الكُتّاب، خاصة ابن المقفع.[25]

---

[21]- سورة الحشر: 21.
[22]- سورة الحج: 73.
[23]- في بلاغة الخطاب الإقناعي، د العمري ص85.
[24]- أسرار البلاغة Pdf، عبد القادر الجرجاني ص 48-49.
[25]- في بلاغة الخطاب الإقناعي، د العمري ص 85.

1- المثل التاريخي: كخطبة الحجاج بعد قتله ابنَ الزبير في الحرم وجَزَعِ الناس لذلك. جاء في جمهرة خطب العرب: "ألاَ إن ابن الزبير كان من أحبار هذه الأمة حتى رغب في الخلافة، ونازع فيها، وخلع طاعة الله، واستكَنّ بحرم الله. ولو كان شيء مانعاً للعصاة لمنع آدم حرمة الجنة. لأن الله تعالى خلقه بيده، وأسجدَ له ملائكته، وأباحه جنته، فلما عصاه أخرجه منها بخطيئته. وآدم على الله أكرم من ابن الزبير، والجنة أعظم حرمةً من الكعبة".

والملاحظ من خلال هذه الخطبة أن الحجاج وظف قصة آدم عليه السلام، وهي من قبيل التاريخ الذي قصه القرآن الكريم، وذلك لتبرير فعله.[26]

وأضاف قوله مبررا بذلك: "...يا أهل الحجاز كيف رأيتموني ألم أكشف ظلمة الجور وطخية الباطل بنور الحق، واللهِ لقد وطأكم الحجاج وطأة مشفق، وعطفة رحم، ووصل قرابة، فإياكم ان تزلوا عن سنن أقمناكم عليه، فأقطع عنكم ما وصلته لكم بالصارم البتار.."[27]

وكما استغل الحجاج قصة آدم في شأن ابن الزبير استغل خالد القسري قصة إبليس وعبادته لله ثم عصيانه واستحقاقه للعقاب في شأن الحجاج عندما دارت عليه الدائرة، وأشارت إليه الأصابع، فصعد المنبر فحمد الله واثنى عليه، ثم قال: " إن إبليس كان ملكا من الملائكة، وكان يظهر من طاعة الله ما كانت الملائكة ترى له به فضلا، وكان الله قد علم من غِشّه وخُبته ما خفِي على ملائكته. فلما أراد فضيحته أمره بالسجود لآدم فظهر لهم ما كان يخفيه عنهم، فلعنوه. وإن الحجاج كان يُظهر من طاعة أمير المؤمنين ما كنا نرى له فضلا، وكان الله قد أطلَعَ أمير المؤمنين من غِشه

[26]- الخطابة د الرحموني ص 108./ في بلاغة الخطاب د محمد العمري ص 86.
[27]- جمهرة خطب العرب في العصور العربية الزاهرة (فصل خطب ولاة الأمويين وقوادهم) Pdf، أحمد زكي صفوت ص 318-319 ج 4.

وخبثه على ما خفي علينا، فلما أراد الله فضيحته أجرى ذلك على يدي أمير المؤمنين، فلعنه، فالعنوه، لعنه الله. ثم نزل".[28]

2- المثل التشبيهي: مثاله ما دار بين ابن الزبير ومعاوية: طلب ابن الزبير من معاوية التجاوز عن المهاجرين والأنصار واصطناعهم فقال معاوية: "هيهات هيهات، لا والله ما تأمن النعجةُ الذئبَ وقد أكل أُلْيَتَها" فقال ابن الزبير: "مهلا يا معاوية، فإن الشاة لتدر للحالب، وإن المُدْية في يده، وإن الرجل الأَرِيبَ ليُصانع ولده الذي خرج من صلبه، وما تدور الرحا إلا بقطبها، ولا تصلح القوسُ إلا بعَجَمِها". فقال: "يا أبا خبيب لقد أجررت الطروقة قبل هباب الفحل".[29]

3-المثل الخرافي: ومثال ذلك ما ورد في كلمة الحسن بن علي رضي الله عنهما في رده على المغيرة بن شعبة حينما شتم عليا فقال: "وأما أنت يا مغيرة فلم تكن بخليق أن تقع في هذا وشبهه، وإنما مثلك مثل البعوضة إذ قالت للنخلة: "استمسكي فإني طائرة عنك". فقالت النخلة: "وهل علمت بك واقعة علي، فأعلم بك طائرة عني...".[30] و من أمثلة الخطب التي وُظف فيها المثل الخرافي، خطبة عبد الملك بن مروان في أهل الحجاز بين الأخويين والحية[31]، وخطبة النعمان بن بشير في أهل الكوفة وهي عبارة عن قصة احتكام الضبع والثعلب إلى الضب[32].

وإذا كانت الأمثال السابقة بأنواعها المختلفة نثرية، فإن ذلك لا يعني أن المثل يكون دائما نثريا، وإنما قد يكون شعرا، كما في خطبة عبد الملك بن مروان في أهل الكوفة لما قَتَل مصعب بن الزبير. قال بعد ان حمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم: " أيها الناس إن الحرب صعبة مرة، وإن السلم أمن ومسرة... أيها

---

[28]- الخطابة للرحموني ص 110/ في بلاغة الخطاب العمري ص88. عن جمهرة الخطب 322/2.
[29]- في بلاغة الخطاب الإقناعي. د العمري ص 90.
[30]- الخطابة للرحموني ص 112.
[31]- انظر الخطابة للرحموني ص 111/ و انظر في بلاغة الخطاب الإقناعي للعمري ص 88.
[32]- انظر الخطبة في الخطابة للرحموني ص 106.

الناس استقيموا على سبيل الهدى، وادعوا الأهواء المردية... إلى أن قال: من شاء منكم أن يعود بعد لمثلها فليعد، فإنما مثلي ومثلكم كما قال قيس بن رفاعة الأنصاري:[33]

من يصل ناري بلا ذنب ولا ترة يصل بنار كريم غير غـــــدار

أنا النـذير لكـم مني مجـاهــرة كي لا ألام على نـهي وإنـــــذار

فإن عصيتم مقالي اليوم فاعترفوا أن سوف تلقون خزيا ظاهر العار

وهكذا يتبين أن الخطابة العربية تُضَمّن خطبها الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأيات الشعر والأمثال والحكم، وهي حجج جاهزة تكتسب قوتها من مصدرها، ومصداقة الناس عليها وتواترها، وتدخل الخطيب ينحصر في اختيارها وتوجيهها إلى الغرض المرصودة للإستدلال عليه.[34]

المطلب الثاني: الخصائص والأساليب الفنية لفن الخطابة

إن الأسلوب الذي كان جزءا من بلاغة الخطاب عند اليونان يحتل الصدارة في البلاغة العربية التي لم تميز بين الشعر والنثر إلا في بعض الجوانب مثل عدم التزام الوزن أو التطرق إلى موضوعات دون أخرى.

وتعود أهمية الأسلوب في نظر أرسطو إلى أن عامة الناس يتأثرون بمشاعرهم أكثر مما يتأثرون بعقولهم، فهم في حاجة إلى وسائل الأسلوب أكثر من حاجتهم إلى الحجة، فلا يكفي إذن أن يعرف المرء ما ينبغي أن يقال، بل يجب أن يقوله كما ينبغي.[35]

---

[33]- الخطابة ص 113.
[34]- في بلاغة الخطاب الإقناعي، العمري ص 90.
[35]- نفسه، ص97.

ويمكن القول إن وجوه بلاغة النص الخطابي التي تؤدي دورها في الإقناع متعددة المناحي والمشارب، يتطلب الإحاطة بها دراسة نصية واسعة. ولذلك نكتفي بالإشارة إلى بعض هذه الوجوه التي من بينها مايلي:

1- البناء الدلالي (تركيب المعاني/ التصوير)

وهذا ما سنطلع عليه من خلال خطبتي عثمان بن عفان و الحجاج بن يوسف الثقفي.

خطبة عثمان رضي الله عنه حين نقم عليه الناس ما نقموا قال: "أما بعدُ فإن لكل شيء آفة، و إن لكل نعمة عاهة، وإن آفة هذه الأمة، وعاهة هذه النعمة، عيابون ظنانون، ويظهرون لكم ما تحبون، ويُسرون ما تكرهون، يقولون لكم وتقولون، طغام[36] مثل النعام، يتبعون أول ناعق. أحبُّ مواردهم إليهم النازخُ[37]، لا يشربون إلا نغضا[38]، ولا يَردون إلا عكرا، ولايقوم لهم رائد، وقد أعيتهم الأمور، وتعذرت عليهم المكاسب. لقد أقررتم لابن الخطاب بأكثر مما نقمتم علي، ولكنه وطئكم برجله وضربكم بيده، ووَقَمَكم[39] وقَمَعكم، وزجركم زجر النعام المخزَّمة[40]، فدِنتُم له على ما أحببتم أو كرهتم. ولنتُ لكم، وأوطأت لكم كتفي، وكففتُ يدي ولساني عنكم، فاجْتَرَأْتُم علي.."[41]

ففي النص مجموعة من التشبيهات والاستعارات والكنايات، وإن كانت في أغلبها مُستعملة (عامية) يمزج فيها الخطيب بين عالم الإنسان المتمرد المشاغب وعالم الحيوان الشارد النافر الذي لا يستقيم أمره إلا بالوَقمِ والقمْعِ.[42]

ونجد في العصر الأموي طائفة من الخطباء الفحول يهتمون بالتصوير، وتبرز مقدرتهم الفائقة في استعماله، منهم الحجّاج وعمرو بن سعيد الأشدق، وعُتبة بن أبي سفيان.

---

[36]- الطغام: أوغاد الناس وأرذلهم، مفردة طغامة.
[37]- النازخ: الذي غاض ماؤه.
[38]- شرِب نغضا: لم يتم شربه.
[39]- وقم الدابة: جذب عنانها، أي قهر وأذل.
[40]- خزم البعير: جعل الخزامة في جانب من منخره.
[41]- في بلاغة الخطاب الإقناعي، العمري ص 104.
[42]- نفسه، ص 104 .

وليست الصورة عند أمثال هؤلاء عنصرا مساعدا لأفكارٍ وحججٍ قائمة بذاتها، على الدوام، بل كثيرا ما كانت الصورة، هي المادة والشكل، هي الموضوع والحجة، نجد من نماذج ذلك قول الحجاج بعد قتل ابن الزبير: "موج ليل التطم وانجلى بضوء صُبحه. يأهل الحجاز كيف رأيتموني؟ ألم أكشف ظلمة الجور، وطُخية(ظلمة) الباطل بنور الحق؟ والله لقد وطِئَكم الحجاج وطأة مشفق، وعطفة رحم، ووصل قرابة، فإياكم أن تزلوا عن سَنَن أقمناكم عليه، فأقطع عنكم ما وصلته لكم، بالصارم البتار، وأقيم من أوَدِكم ما يقيم المثقّف من أوَدِ القناة بالنار. ثم نزل وهو يقول:

أخُو الحربِ إن عضَّت به الحَرب عضَّها وإن شمَّرتْ عنْ ساقِها الحَرب شَمَّرا

وتقوم الخطبة على المقابلة بين حالتين: حالة الليل والظلام والباطل من جهة، وحالة الصبح والضوء ونور الحق من جهة ثانية... دون اهتمام بإقامة الحجة على صحة ما يقول، أي دون فحصٍ للمحتوى.. لاشك أن الحجاج قد استفاد في بناء هذه الخطبة من صور تتردد في ذاكرته، ويحسبها خياله على الواقع الجديد، مصدرها الشعر القديم والنصوص الإسلامية.[43]

فحديثه عن الإخراج من الظلمة إلى النور ينظر إلى منَّة الإسلام المترددة في القرآن باعتباره منقذا للعرب من (جاهليتهم)، فلعل الحجاج كان يحس بنشوة النبوية وهو يفتح مكة، ولعله تذكر فتح الرسول لها. ولعله تذكر عفو الرسول، فوطِئ القومَ "وطأة مشفق".. وقد نجد هذا الشعور بالفتح في حديثه عن "السنن" الذي أقامهم عليه، ثم في ذكره النار عقابا لمن حاد عن الطريق. ولعل الحجاج في غمرة نشوة الانتصار حاول أن يجرَّ مستمعيه إلى هذا الجو ليشعرهم بالذنب. وهو يتحول من جبار مجترئ على الحرم إلى فاتح هادٍ؛ يُخرج من الظلمات إلى النور ويُقيم على السنة.[44]

---

[43]- نفسه، ص 105.
[44]- نفسه ص 106.

و في خطبته في أهل الكوفة التي استهلها ببيت شعرٍ: "أنا ابن جلا" حيث حشد فيها مجموعة من التشابيه والاستعارات والكنايات والأوصاف المشخصة.

فالتشبيه يستوحذ على الفقرة التالية: "أما والله لألحُوَنَّكم لحو العصا، ولأقرعنَّكم قرع المَروة، ولأعصبَنَّكم عصب السَّلمة.." ومنه قوله: "ولا يغمز جانبي كتِغماز التين"

ونجد الاستعارة في قوله: "رؤوساً قد أينعت، وحان قطافها" "معدن الشقاق والنفاق" "فررت عن ذكاء" "أحمل الشر بحمله وأحذوه بنعله".

ومن الكناية: "وما يقعقع لي بالشنان". ثم هناك الوصف المادي المباشر: "الدماء بين العمائم واللحي".[45]

أما الخطابة الوعظية فصورها مكرورة تدور حول زوال الدنيا وغرورها وبقاء الآخرة: فالدنيا متاع يباع لتشتري به الآخرة: كما في قول الحسن البصري "ابن آدم، بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعا، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعا". وقول سبحان بن زفر الوائلي: "الدنيا دار بلاغ، والآخرة دار قرار، فخذوا من دار ممركم، لدار مقركم". و يعوض التصوير في الخطب الوعظية بالمقابلات المعنوية بين عالم زائل وعالم باق، بين الأوائل والأواخر، بين الاستقامة والجور، بين الطاعة والعصيان، والظلم والإنصاف.[46]

وكذلك يعتبر التقسيم من أهم أبواب بلاغة المعاني التي قيل عنها: "البلاغة في المعاني ألطف من البلاغة في الألفاظ، ويستحسن منها صحة التقسيم".[47] وتتجلى صحة التقسيم بالنسبة للخطابة في استقصاء الخطيب جميع ما ابتدا به، فيستخرج الحجة من ذلك حتى لا يبقى للسامع أي تأويل أو فهم مخالف أو زائد على ما يقتضيه كلام الخطيب. (الألفاظ هي قوالب للمعاني)

---

[45]- نفسه، ص .107.
[46]- نفسه ص 110/ 111.
[47]- الخطابة، للرحموني ص 119.

ومما يستشهد به في النثر في صحة التقسيم، قوله صلى الله عليه وسلم: "يقول ابن آدم مالي مالي، وإنما لك من مالك، ما أكلت فأفنيت، وما لبست فأبليت، أو أعطيت فأمضيت".[48]

2-البنية الصوتية (أو إيقاع النص الخطابي)

أجمع معظم الدارسين العرب على أهمية الإيقاع في الخطابة ودوره في إضفاء صفة الأدبية عليه[49]. والسجع في البلاغة يعطي الكلام مكانة أقرب إلى الرجز والقصيد وإن كان دونهما، كما يقول الجاحظ: "السجعُ والمزدوج دون القصيد والرجز". وينبغي "أن يكون في بعض الكلام لا في جميعه"، فإن السجع في الكلام كما يقول ابن وهب: "كمثل القافية في الشعر، وإن كانت القافية غير مستغنىً عنها، والسجع مستغنىً عنه."[50]

وقد رفض البلاغيون العرب اطرادَ السجع والجناس وغيرهما من المحسنات اللفظية لما ينم عنه من تكلف يعوق الوظيفة الإبلاغية للخطاب، فظهور التكلف مناف لغرض الإقناع الذي تستهدفه الخطابة. ومع ذلك فـ "لا يحسن منثور الكلام ولا يحلو حتى يكون مزدوجا، ولا تكاد تجد لبليغ كلاما يخلو من الازدواج".[51]

والازدواج والتوازن والترصيع وغيرهما من المصطلحات الصوتية مراتب حسب توافق طرفي الفاصلتين؛ في عدد الحروف والحركات والسكنات مع توافق الأعجاز أو تقاربها.

نحو قوله تعالى: {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ. وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ}[52]. {وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ . وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ}[53] و إن لم تكن ألفاظ إحديهما مثل الألفاظ

---

[48]- الخطابة، ص 120.
[49]- الخطابة ، للرحموني ص 129.
[50]- في بلاغة الخطاب الإقناعي، للعمري ص 113.
[51]- نفسه، ص 113.
[52]- سورة الانفطار: الآيتين:14/13.
[53]- سورة الصافات: الآيتين 117/ 118.

الأخرى في الوزن والتقفية سمي سجعا متوازنا. نحو قوله تعالى: {فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ .وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ}[54] و "حصل الناطقُ والصامت، وهلك الحاسد والشامت". أو لا يكون لكل كلمة من إحدى القرينتين مقابل من أخرى، نحو قوله تعالى: {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ. فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ}[55]. قال بعضهم "أحسن السجع ما تساوت قرائنه، ثم طالت قرينته الثانية أو الثالثة".[56]

ويمكن تقسيم الخطابة في القرن الأول حسب العنصر الصوتي الإيقاعي إلى ثلاثة مستويات:

- خطب كثيفة الصناعة: مسجوعة.
- خطب متوسطة الصناعة: بين السجع والازدواج.
- خطب مرسلة، قليلة الصناعة.[57]

أ- الخطب المسجوعة: إن السجع المرصع هو طابع أغلب ما وصلنا من خطب الجاهلين خاصة سجع الكهان.[58] ويضاهيه في ذلك ما نسب إلى المتنبئين من نثر في صدر الإسلام، ومن ذلك بعض الخطب التي كانت تلقى بين أيدي الخلفاء كما قال الجاحظ: "وقد كانت بعض الخطباء تتكلم عند الخلفاء الراشدين فيكون في تلك الخطب أسجاع كثيرة، فلا ينهونهم"، وفي بعض المناظرات السياسية، أو في بعض الخطب التي كان لأصحابها أهواء خاصة[59]، كالمختار الثقفي الذي كان يدعي النبوة، فيصطنع (لوحيه) فواصل قصارا مسجوعةً. كقوله: "أما ورب البحار، والنخيل والأشجار، والمهامة والقفار، والملائكة الأبرار، والمصلين الأخيار، لأقتلن كل جبار، بكل لدن خطار، ومهند بتار، وجموع من الأنصار، ليسوا بميل

---

[54]- سورة الغاشيات: 13/ 14.
[55]- سورة الكوثر: 2/1.
[56]- في بلاغة الخطاب، للعمري ص 114.
[57]- نفسه، ص 115.
[58]- نفسه، ص 115.
[59]- الخطابة، للرحموني ص 133.

الأغمار، ولا بعزل أشرار، حتى إذا أقمت عمود الدين، وجبرت صدع المسلمين، وشفيت غليل صدور المؤمنين، وأدركت ثأر النبيين، لم يكبر علي زوال الدنيا، ولم أحفل بالموت إذا أتى"[60].

ب- خطب بين السجع والازدواج: الاتجاه الثاني يزاوج بين الصنعة الصوتية وغيرها من المقومات الأخرى. ولذلك نجد هذا النوع من الخطب يسير في فقرات معنوية ازدواجية أو سجعية يتلو بعضها بعضا، تتقدم كل واحدة منها مقدمةٌ يلتقط فيها الخطيب خيط المعنى ثم يحوكه حياكة جديدة في فواصل جديدة، فتتكون أزواج متوازنة توازنا مُقارنا بالنسبة لعنصر تعود إليه. على نحو قول الحجاج: "أهل الكوفة أما والله، إني لأحمل الشر بحمله، وأحذوه بنعله، وأجزيه بمثله". "وإني أرى أبصارا طامحة، ورؤوسا قد أينعت وحان قطافها، وإني لصاحبها".

فهناك ممهد مشترك بين الفقرتين: " يا أهل الكوفة أما والله إني" و للفقرة الثانية ممهد داخلي خاص بها: "لأرى" الذي صار مضمرا في القرينة التالية لها "رؤوسا.." ويقوم الازدواج في الفقرات على الموازاة بين التراكيب النحوية المتعادلة، مع مرونة تتجلى في تعويض الظاهر بالضمير، وتغيير التركيب داخل الفقرة الواحدة أو الزيادة في عناصره، وذلك شأن الفاصلة: "ورؤوسا قد أينعت وحان قطافها" التي يجوز شقها إلى فاصلتين. تتجاوب الأولى ازدواجا مع: "وإني أرى أبصارا طامحة" والثانية مع: "وإني لصاحبها".

ت- خطب مرسلة (قليلة الصناعة): وهي خطب قليلة العناية بالموازنات الصوتية الإيقاعية، وخاصة الجناس الذي لا يكاد يظهر فيها إلا لماما. غير أن أصحاب هذه الخطب لم يهملوا الإيقاع إهمالا مطلقا بل حاولوا تحقيق شيء منه باعتماد الجمل والفواصل القصيرة غالبا. وهذا طابع خطب الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء ورجال الدولة في الصدر الأول. فنجد في خطب أبي بكر وعمر فواصل

---

[60]- في بلاغة الخطاب ، العمري ص 116.

قصيرة متعادلة في الغالب غير ملتزمة للسجع أو الترصيع. وإن وقع فيها من حين لآخر. ويمكن أن نعتبر خطبة حجة الوداع نموذجا لهذا النمط من النثر، فإن بعض فقراتها تخلو من عموم الازدواج لسعيها الحثيث وراء المعنى المتجدد.

3- البنية الهيكلية:

ترتيب أجزاء القول يسير في ثنائية عُبّر عنها في مجال البراهين، بثنائية الدعوة العاطفية في المقدمة والخاتمة، والدعوة إلى الواقع والعقل في العرض والدليل.

والمتَّبَع أن يحتوي الاستهلال لحظتين: لحظة الاستهواء والاستمالة، وذلك حسب طبيعة القضية المطروحة، ولحظة الإعلان عن التقسيم المتبنى، والتخطيط المتبع. كما أن للخاتمة مستويين: مستوى الأشياء أي مستوى الإعادة والتلخيص، ومستوى العواطف.

أما العرض فينبغي أن يكون واضحا ومختصرا خاليا من الاستطراد والتشخيص، يكتفي بالإعداد لمرحلة البرهنة، فهو يضم ذكر الوقائع ووصفها زمنيا ومكانيا كما يصف الذوات.

وبعد العرض يشرع في البرهنة بتقديم بعض الأدلة القوية وتأخير بعضها. وتقدم الحجج تنازلا (من الأقوى إلى الأضعف) أو تصاعدا (عكس الأول). أو توزع بين الأول والأخير.

يقول الدكتور العمري في كتابه في بلاغة الخطاب الإقناعي: "ولم أجد فيما اطلعت عليه من البلاغة العربية تقنينا للنظام الذي ينبغي للخطيب أن يتبعه في ترتيب أجزاء خطبته عدا الإلحاح على الاستهلال الديني: فمن أوصاف الخطابة أن تفتتح الخطبة بالتحميد والتمجيد.. ولذلك كانوا يسمون كل خطبة لا يذكر الله عز وجل في أولها: البتراء.

والجانب الثاني الذي أشار إليه البلاغيون والأدباء، هو تضمين المقدمة ما يدل على الموضوع. فمما أسند إلى ابن المقفع "وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك".

وعلق الراوي عليه بقوله: "كأنه يقول: فرق بين خطبة العيد وخطبة الصلح، وخطبة التواهب، حتى يكون لكل فن من ذلك صدر يدل على عَجُزِه، فإنه لا خير في كلام لا يدل على معناك، ولا يشير إلى مغزاك، وإلى العمود الذي إليه قصدت، والغرض الذي إليه نزعت...".

المبحث الثالث: تحليل حجة الوداع

المطلب الأول: حجة الوداع ظروفها و مناسبتها

لم يحج النبي صلى الله عليه و سلم من المدينة غير حجته التي كانت في العام العاشر، وعرفت هذه الحجة بحجة البلاغ، وحجة الإسلام، وحجة الوداع؛ لأنه صلى الله عليه وسلم ودع الناس فيها ولم يحج بعدها، وحجة البلاغ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم بلغ الناس شرع الله في الحج قولا وعملا، ولم يكن بقي من دعائم الإسلام وقواعده شيء إلا وقد بينه، فلما بين لهم شريعة الحج ووضحه وشرحه أنزل الله عليه بعرفة: { اليوم أكملت لكم دينكم و أتممت عليكم نعمتي و رضيت لكم الإسلام دينا }[61] [62]

المطلب الثاني: نص خطبة حجة الوداع

هذه الخطبة ألقاها النبي صلى الله عليه وسلم في يوم عرفة، نصوصها في كتب الحديث متوزعة ومتفرقة على الأبواب، وذكرها علماء السير كالطبري في تاريخ الأمم

---

[61]- السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث د. علي محمد محمد الصلابي ص 1041 – مكتبة فياض-.
[62]- سورة المائدة : 3.

والملوك، وابن هشام في سيرته وابن كثير في البداية والنهاية. لكننا نجدها مجموعة بكاملها في موضع واحد، في كتاب البيان والتبيين للجاحظ.

قال النبي صلى الله عليه وسلم:

((الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أوصيكم عباد لله بتقوى لله، وأحثكم على طاعته وأستفتح بالذي هو خير. أما بعد "أيها الناس اسمعوا مني أبين لكم فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا". "أيها الناس : إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا "

"ألا هل بلَّغت ؟ اللهم اشهد! .فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى الذي ائتمنه عليها. وإن ربا الجاهلية موضوع، وإن أول رباً أبدأ به ربا عمي العباس بن عبد المطلب. وإن دماء الجاهلية موضوعة. وإن أول دم نبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وإن مآثر الجاهلية موضوعة، غير السدانة والسقاية، والعمد قود، وشبه العمد: ما قتل بالعصا والحجر، وفيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية. أيها الناس، إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه، ولكنه قد رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم.

أيها الناس: إن النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله . وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السماوات والأرض وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم:

ثلاث متواليات وواحد فرد: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان. ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد!

أيها الناس: إن لنسائكم عليكم حقاً، ولكم عليهن حق. لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم غيركم، ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن وهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف وإنما النساء عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً أخذتموهن بأمان الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله. فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيرا. ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد!

أيها الناس، إنما المؤمنون إخوة، ولا يحل لامرئٍ مسلم مال أخيه إلا عن طيب نفس منه. ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد! ". "فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض فإني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده : كتاب الله . ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد !.

"أيها الناس ، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب. أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير. وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى. ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد! قالوا: نعم، قال: فليبلغ الشاهد الغائب". "أيها الناس، إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، فلا تجوز لوارث وصية، ولا تجوز وصية في أكثر من الثلث. والولد للفراش، وللعاهر الحجر. من ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل". والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته)).